المحاضرة السادسة: الخطاب الطوباوي بعد توماس مور Thomas More

المقدمة: الخطاب الطوباوي الذي أسس له توماس مور في مؤلفه يوتوبيا والذي وقفنا على تفاصيله في المحاضرة السابقة، لم يكن سوى ضربة البداية لبروز عدد هائل من الأعمال بعد ذلك، والتي سعت إلى مقاربة واقع المجتمعات الإنسانية وتناوله في أبعاده الزمكانية المختلفة، وفق رؤى ومنظورات إصلاحية متعددة في مرحلة أولى، ومشاريع عملية وتجارب تطبيقية في مرحلة لاحقة، كما سيتأتي بيانه معنا ضمن تفاصيل وجزئيات هذه المحاضرة.

أولا. وضع اليوتوبيا بعد توماس مور: يجمع مؤرخو اليوتوبيا على أن نص **توماس مور** يشكل بلا شك القالب الأم لمثل هذا الصنف الأدبي، حيث جرى انتقال الطوبيا من انجلترا لتستقر في إيطاليا منذ نهاية القرن السادس عشر (16) لبعض الوقت، ثم فرنسا ومن بعدها في انجلترا مجددا مطلع القرن السابع عشر (17)، حيث استقرت بها لوقت متأخر طوال القرنين الثامن عشر (18) والتاسع عشر (19). ومن هذين البلدين جرى انتشارها في كل من: **روسيا، الولايات المتحدة الأمريكية، اسبانيا، أميركا الجنوبية**، قبل أن تصبح موضوعا مطالبا به في العالم الصناعي خلال القرن العشرين (20) وما بعده.

وقد أدى ذلك إلى ظهور العشرات من الكتابات بعد **توماس مور**، لمصلحين أصحاب رؤية خيالية شجعوا فكرة المجتمعات المثالية أدبيا لا علميا، وكان هدفهم من وراء ذلك هو إثارة هذا الموضوع وما على الآخرين سوى تحديد الطريقة التي يرونها مناسبة لإقامة هذه المجتمعات. حيث قدر عدد الكتابات اليوتوبية حتى سنة 1911 حسب: **هنري ديروش** بزهاء 1150 عنوانا لطوبيا مكتوبة عدا المطبقة بطبيعة الحال. ولم ينضب هذا الصف الأدبي منذ ذلك الحين، بل على العكس من ذلك تماما فإن النصوص اليوتوبية قد انتشرت مطعمة بالخيال العلمي أو مركزة على البيئة أو قضايا المرأة، كما ملأت الأطروحات ومذكرات البحث الجامعية والدراسات التاريخية. هذه الأعمال انصبت في عمومها حول ثلاث (03) مجالات كبرى، وهي: يوتوبيا سياسية، يوتوبيا صناعية، ويوتوبيا بيئية.

ثانيا. نظرة على أهم اليوتوبيات التي أعقبت تصور مور: من بين عشرات النصوص المتاحة بين أيدينا، وقع اختيارنا على نموذجين يعدان من أهم وأشهر اليوتوبيات بعد عمل توماس مور، الأول قدمه **توماس كامبانيلا** تحت عنوان: **مدينة الشمس**، والثاني قدمه **فالنتين أندريا** من بعده تحت اسم **المدينة المسيحية**، واللذان سوف نقف على تفاصيلهما في التناول الأتي.

1- توماس كامبانيلا: مدينة الشمس (1568-1639): ولد الإيطالي **توماس كامبانيلا** في مدينة **ستيلو** الواقعة بولاية **كالابريا**، وتكون في المدرسة الكنسية، متمسك بالآراء العقلانية لأرسطو السائدة خلال القرون الوسطى. تم إيقافه بتهمة التآمر ضد الحكومة الاسبانية وقضى 25 سنة في السجن، ليطلق سراحه ثلاث (03) سنوات من بعد ذلك، قبل أن يعاد القبض عليه من جديد بعد أن صدر في حقه حكم بالمتابعة، وهو ما جعله يطلب اللجوء إلى فرنسا.

وقد كتب **كامبانيلا** معظم مؤلفاته في السجن، يتقدمها مؤلفه الشهير مدينة الشمس **La Cité du Soleil** والذي كتبه للمرة الأولى بالايطالية سنة 1611، ليعيد بعد ذلك كتابته مرة أخرى باللاتينية بين عامي 1613-1614. في حين تم نشره للمرة الأولى عام 1623 في فرانكفورت بألمانيا، والذي قدم فيه عرض لفكرة إصلاح الجمهورية المسيحية طبقا للوعد الذي وعد به الله القديسة كاترينا والقديس بردجيه.

هذا الكتاب جعل منه المثالي الأساسي في الحياة السياسية، وهو يقترب في نموذجه من جمهورية أفلاطون، ويقوم على اشتراكية الحاجات والنساء داخل مدينة يترأسها راهب ميتافيزيقي، وذلك من خلال مبادئ: القوة، الحكمة، الحب، وهي المبادئ التي تحكم كل الكائنات والموجودات في الطبيعة حسبه.

تنظيمها الفضائي: يبلغ قطر المدينة ميلين أو أكثر ومحيطها ما يقرب من سبعة (07) أميال، ولأن المدينة مبنية على منحدر فإن عدد بيوتها أكبر مما لو كانت قد بنيت فوق سهل. وهي مقسمة إلى دوائر مسماة بأسماء الكواكب السبعة، يمر المرء من دائرة إلى أخرى من خلال أربعة(04) شوارع ومثلها من الأبواب متجهة صوب الجهات الأربعة للأرض. ونظمت بحيث إذا تم اقتحام الدائرة الأولى، فإنه سيتطلب جهد أكبر لاقتحام الثانية، وجهد أكبر لاقتحام باقي الدوائر، وهو ما يقتضي ضرورة مهاجمتها سبع (07) مرات قبل التمكن من الاستيلاء عليها. كما أن أسوارها شديدة السمك ومحصنة تحصينا قويا بالأبراج والمدافع والخنادق المحيطة بها من الخارج.

النظام السياسي: يحكم المدينة أمير وهو رئيسهم الروحي والزمني والذي يرجعون إليه في الأمور كلها، ويساعده ثلاثة أمراء من رتب متساوية وهم: **مور** (الحب)، **سين** (المعرفة)، **بون** (القوة). فالأول مسؤول عن الإنجاب وتعليم الأطفال والأدوية والعقاقير والزراعة وجمع محاصيل الفواكه... إلخ، والثاني مسؤول عن جميع العلوم والأساتذة المختصين، أما الثالث فيشرف على كل ما يتصل بالرحب والسلم والفنون العسكرية. غير أنهم لا يشنون الحروب إلا إذا تعرضوا للإهانة أو تعرضت مدينتهم للسلب أو النهب، غير انهم يبادرون لمساعدة الأمم التي تعاني اضطهاد أحد الطغاة، لأنهم يدافعون دائما عن الحرية. وهم على النقيض من من مواطني جمهورية أفلاطون لا يحتقرون الأمم التي تقل عنهم استنارة، وإنما يؤمنون بأن الأرض كلها سوف تحتذي بهم في الوقت المناسب، وتعيش عيشة متفقة مع عاداتهم وتقاليدهم.

النظام الاقتصادي: تحظى الزراعة في مدينة الشمس بالتقدير العظيم، متبعين فيها أخر ما توفر لهم من أساليب علمية. حيث يمضي جميع المواطنين للعمل في الحقول، وهم مدججين بالسلاح رافعين الأعلام وزاحفين على أصوات الطبول والأبواق، ولا يتركون شبرا واحدا من الأرض بغير حرث. كما يعتبرون أن العمل اليدوي مهما بدا وضيعا هو واجب مشرف.

وتعد المرأة عنصرا فاعلا فيها أيضا، حيث تشارك في كافة الأعمال التي يقوم بها الرجال وإن كن يكلفن بمهام أخف، حيث يتدربن حتى على استعمال السلاح تحت إشراف أساتذتهن من المعلمين والمعلمات، كي يتمكن في حالة الضرورة من مساعدة الرجال في المعارك الدائرة بالقرب من المدينة.

كما يلغي **كامبانيلا** الملكية بالنسبة للمجتمع كله لا لطبقة واحدة كما يذهب إلى ذلك أفلاطون، فكل الأشياء مشتركة بين السكان (الطعام، المعرفة، المباهج، المسرات، أوجه التشريف والتكريم... إلخ)، حيث لا يستطيع أي شخص أن ينفرد بتملك أي شيء، ويتم كل ذلك تحت إشراف القضاة الذين يحرصون أشد الحرص على أن لا يأخذ أحد أكثر مما يأخذه غيره أو أكثر مما يستحق.

النظام الأسري: قوانين مدينة الشمس المتعلقة بالأسرة لا يمليها إلا الحرص على إنجاب سلالة سليمة تتمتع بالصحة، حيث يذهب كاميانيلا في تصوره لكيفية تحسين النسل إلى أبعد ما يذهب إليه الفيلسوف اليوناني أفلاطون، معتقدا أن القضاة ينبغي أن يساعدهم الأطباء والمنجمون، وزيادة في الاحتياط يتوجه المصلون إلى الله سائلين إياه أن يمنح المدينة ذرية معافاة.

ويمنع على الرجال في هذه المدينة الإنجاب قبل بلوغهم سن الواحد وعشرين (21) سنة، وتزوج النساء الطويلات الجميلات من الرجال الطوال الفضلاء، في حين تزوج النحيفات للبدينين لتحقيق نوع من التوازن. وإذا لم تحمل المرأة من زوجها فإنها تستبدل به رجلا أخر.

النظام التربوي: تعد يوتوبيا **كامبانيلا** أول يوتوبيا أعطت دورا قياديا للعلوم الطبيعية، حيث يعتقد كامبانيلا في هذا الإطار، أن الرجل المتعلم يملك القدرة على الحكم، لأن وضع الجهلة في مراكز الحكم لمجرد أنهم ولدوا نبلاء، أو تم انتخابهم من قبل حزب قوي، ثم يعيشون بعدها كسالى متبطلين ويحتفظون كذلك بأعداد كبيرة من الخدم الكسالى المتراخين، هو ما يدفع بالجمهورية إلى الخراب.

لذا فإن النظام التربوي عنده ينبغي أن يقوم على تعليم الأطفال ابتداءا من سن الثالثة (03) اللغة والحروف، وذلك بالمشي في أربعة صفوف حول الحوائط والجدران الداخلية والخارجية للمعارض المزينة برسوم تصور مختلف العلوم، يقودهم أربعة من كبار السن الذين يتولون التدريس لهم. ويعودوا حتى سن السابعة (07) على السير حفاة الأقدام وبشعور غير ممشطة، ويأخذون في جولات حول الورش الخاصة بالحرف المختلفة، ك: الخياطين، النقاشين... إلخ لكي يكتشفوا ميولهم واستعداداتهم. وبعد ذلك السن يباشرون تلقي دروسا في العلوم الطبيعية وعندما يصبحون أكبر سنا يدرسون الرياضيات والطب وغيرهما من العلوم. كما يذهبون أيضا إلى الريف

ليتدربوا على كيفية العمل في الحقول والمراعي، وكل من درس منهم معظم الفنون ومارسها بإتقان يعتبر على درجة عالية من النبل. ويدعو جميع الشبان في مجتمع هذه المدينة بعضهم بعضا بالإخوة، أما من يكبرهم بخمسة عشر عاما فيدعونهم بالأباء، ومن يصغرونهم بخمسة عشر عاما بالأبناء.

النظام القضائي: يقوم تصور **كامبانيلا** في هذا الإطار على إلغاء السجون كما يحرم التعذيب في مدينته المثالية أيضا، إلا أن الحرية عنده كما في غيرها من اليوتوبيات السابقة قليلة، حيث يمكن أن يحكم على النساء بالموت إذا ثبت أنهن يستعملن أدوات الزينة أو يلبسن أحذية بكعوب عالية. بالإضافة إلى أن الجرائم التي ترتكب في حق حرية الجمهورية أو تقترف في حق الذات الإلهية أو القضاة الكبار يعاقب عليها القانون كذلك بالإعدام.

2- فالنتين أندريا: مدينة المسيحيين: باحث وعالم إنساني ألماني ولد سنة 1586، وأتاح له شمول تعليمه وكثرة رحلاته أن يطلع إطلاعا واسعا على فكر عصر النهضة وكتابات علمائه وأدبائه.

ظروف كتابة العمل وإخراجه: نشرت مدينة المسيحيين في سنة 1619 ميلادي، أي بعد سبعة عشر (17) سنة فقط من كتابة **توماس كامبانيلا** مدينة الشمس، والذي جاء على هيئة رسالة موجهة لأولئك الذين يمكنهم أن يتمنوا اللجوء إلى مدينته المثالية، كما أن أسلوبه يعد أقرب إلى أسلوب كتب التعبئة الروحية والمعنوية منه إلى قصة تهدف إلى الهداية أو التسلية. ولم يترجم العمل إلى اللغة الألمانية إلا في سنة 1741 وإلى اللغة الإنجليزية إلا في سنة 1916. ولم تحقق مدينة المسيحيين نفس الشهرة التي نالتها يوتوبيا كل من: **توماس مور** و**توماس كامبانيلا من قبل**، وذلك بفعل جملة من الاعتبارات أبرزها ما يلي:

أ. اضطراب ظروف العصر الذي ظهر فيه تسبب في إهمال هذا العمل.

ب. أسلوب الكتابة المتبع في هذا العمل والمتسم بالجفاف.

ت. الاتهام الذي وجه إليه من قبل البعض بأنه مجرد نسخة مكررة من: يوتوبيا توماس مور، ومدينة الشمس لكامبانيلا.

كيفية الانتساب للمدينة الفاضلة: قبل أن يؤذن للرحالة بالدخول إلى المدينة يتم استجوابه من قبل ثلاثة ممتحنين، حيث يهتم الأول بالتأكد من الوافد ليس بدجال ولا شحاذ ولا ممثل مسرحي، ويختبر الثاني خلقه ومزاجه، في حين ينصب اهتمام الثالث على التأكد إن كان قد أحرز تقدما في ملاحظة السموات والأرض، والتمعن في بحث الطبيعة والأدوات الفنية وتاريخ اللغات وأصلها وتجانس العالم... إلخ. ورغم أنه قد يكون غير جاهز تماما للإجابة على كل هذه الأسئلة، فإنهم يسمحون له بالدخول لأنه جاء معه بسجل طاهر ونظيف.

التنظيم الفضائي والسكني للمدينة المسيحية: تتسم المدينة المسيحية بأنها ذات شكل مربع تبلغ مساحة ضلعه سبعمائة قدم، وهي محصنة تحصينا متينا بأربعة أبراج وسور، وتطل لهذا السبب على الجهات الأربع للأرض، وفيها صفان من الأبنية يصلان إلى أربعة (04) إذا أضفت مقر الحكومة والمخازن. وهناك شارع عمومي واحد

عرضه عشرون قدما، وكذلك سوق واحد لكنه على درجة عالية من التنظيم. كما يوجد فيها معبد دائري يبلغ طول قطره مائة قدم.

وتنقسم المدينة بأكملها إلى ثلاثة أقسام، واحد لإمدادها بالغذاء والثاني للتدريب العسكري والرياضي والثالث للكتب، في حين باقي الجزيرة مخصص للزراعة والورش الصناعية. حيث نجد في الطرف الخارجي منها القسم المخصص لإنتاج الغذاء وتخزينه وكذلك للصناعات الثقيلة، والقسم الموجه للشرق يضم منطقة المزارع التعاونية، وهو مجزأ إلى شطرين توجد في أحدهما المزارع وفي الأخر حظائر تربية المواشي، والقسم المواجه للجنوب تشغله الطواحين والمخابز، والموجه للشمال توجد به محلات اللحوم والمخازن، أما القسم المتجه للغرب فهو مخصص للحدادة.

جميع المباني في هذه المدينة مكونة من ثلاثة طوابق تؤدي إليها شرفات عامة، وهي مبنية بالطوب الحجري المحروق، وتفصل بينها حوائط عازلة ومضادة للحريق حيث لا تستطيع النيران تخريبها تخريبا شديدا. أما المنازل فهي تقريبا مبنية على طراز واحد، وتتم صيانته وتنظيفها بعناية حتى لا تشوبها أي شائبة، وكل منزل فيها يتكون من ثلاث (03) غرف وحمام وجناح للنوم ومطبخ، ويفصل بين هذين حاجز خشبي. والجزء الأوسط داخل الأبراج به منور صغير ونافذة واسعة، حيث ترفع الأخشاب والأشياء الثقيلة الوزن بواسطة بكرات... وتقوم الدولة بصيانة المنازل على نفقتها، ويتخذ المفتشون الاحتياطات اللازمة لكي لا يخرب شيء أو يبدل بسبب السهو أو الاهمال. كما أن كل الأشياء فيها تبدو شديدة التشابه، فلا بذخ ولا قذارة والهواء منعش والتهوية متوافران.

وخارج الحوائط المحيطة بالمباني، يوجد خندق مملوء بالأسماك يمكن الاستفادة منه في أوقات السلم، وتوجد في الاماكن المفتوحة وغير المستعملة حيوانات مفترسة يحتفظ بها للأغراض العملية لا للفرجة والتسلية.

يعيش فيها ما يقرب من أربعمائة (400) مواطن في ظل الإيمان والسلام الساميين.

النظام القضائي: يكرس النظام القضائي في هذه المدينة الرقابة على الكتب وتفتيش المنازل، وفرض العقوبات الصارمة على الزنا. فقضاة المدينة لا يتوانون في هذا الصدد على إنزال أقسى أنواع العقاب بتلك الآثام التي تقترف في حق الرب، والأقل منها قسوة تلك التي ترتكب ضد الناس وأخفها جميعا الجرائم التي تضر بالملكية.

ولما كان المواطنون المسيحيون يلزمون الحذر دائما من إراقة الدماء، فإنهم لا يوافقون على أن تكون عقوبة الإعدام شكلا من أشكال العقاب. لهذا الغرض هناك أنواع مناسبة ومختلفة من العلاج والتي يتم اختيارها بحيث تصلح لجميع الأفراد، فإذا لم يستفيد المرء من التحذيرات المتكررة فلا بد من إخضاعه بالجلد بالسياط.

ويبدي هنا المصلح الألماني شيئا من الرحمة والإنسانية فيما يقوله عن قسوة الشريرين الذين يعاقبون أكثر مما يصلحون، معتقدا أن الوقاية من سهولة ارتكاب الناس للخطيئة هو فن الفنون، وأن قطع الفروع الأولى للرذيلة واقتلاع جذورها لأكثر إنسانية من بتر سوقها الناضجة، ذلك أن أي إنسان يستطيع تدمير إنسانا، غير أن أفضل الناس هو الذي يستطيع أن يصلح.

نظام الحكم: يحكم القسم المركزي للدولة ثمانية رجال، يعيش كل منهم في أحد الأبراج الكبيرة ويعاونه ثمانية (08) مساعدين موزعين على الأبراج الصغيرة. وهناك أيضا أربعة وعشرون (24) مستشارا منتخبين من قبل المواطنين، ولا يدين أعضاء المجلس ولا الموظفين الكبار للدولة والمستشارون بمناصبهم للثروة، بل لفضائلهم السامية. والدين هو الذي يحكم الدولة.

التنظيم الاقتصادي: يتجلى التنظيم الاقتصادي للمدينة المسيحية كما تصورها **فالنتين أندريا** في النقاط الثلاثة الآتية:

أ. **إلغاء الملكية الخاصة والتعامل النقدي**: ليس في هذه المدينة المسيحية ملكية خاصة، فكل إنسان يتسلم من الجماعة كل ما يحتاج إليه بقدر ما يكفيه في عمله طوال الأسبوع، وبتالي فلا أحد يملك النقود التي لا يتم التعامل بها، لذا لا يتفوق أي إنسان على أخر بفضل الثروة التي يمتلكها، بل يمتاز الواحد منهم على الأخر بفضل قوته وعبقريته، كما تنال الأخلاق القويمة والتقوى أسمى آيات الاحترام.

ب. **نظام العمل**: العمل في نظر سكان المدينة المسيحية ليس عقابا مفروضا على الإنسان، وذلك إذا ما قام به كنوع من تجزية الفراغ. لذا فهم لا يقبلون على أي عمل لا يهيء لهم السرور والبهجة. كما أن قواهم التي تملك من الجهد والتعب سرعان ما تتجدد بمراعاة التوازن الكامل بين العمل والفراغ، لذلك نجدهم يعملون ساعات قليلة جدا، ومع ذلك فإن إنجازهم لا يقل الإنتاج الذي يتم في أماكن أخرى. إذ يعتبر الجميع أنه من العار على أي واحد منهم أن يأخذ من الراحة والفراغ أكثر مما هو مسموح به، فهم يمضون جميعا إلى أعمالهم بطريقة تدل على أنهم يفيدون أجسادهم بالعمل ولا يؤذونها، وحيث لا توجد عبودية أو أي شكل من أشكال إعانة العاملين للمتعطلين فلا شيء يرهق الجسم أو يضعفه.

ت. **العمل الحرفي**: يحتل العمل مكانا مشرفا لدى سكان المدينة المسيحية، فهناك واجبات عامة يلتزم بها جميع المواطنين كالمراقبة، حصاد الغلال والكروم وأعمال الطرق وتشييد المباني وتجفيف الأراضي وكذلك بعض الواجبات الأخرى كالمساعدة في المصانع والتي تفرض على الجميع طبقا للعمر أو الجنس، ولكنها لا تتكرر كثيرا ولا بصفة دائمة. ومع أن بعض ذوي الخبرة يكلفون بالقيام بجميع الواجبات، إلا أنه إذا طلبت المساعدة من الرجال لم يبخل على الدولة بخدماته وقواه. ولهذا السبب لا يخجل أحدا منهم من القيام بأي خدمة عامة ما دامت لم تكن منفرة أو ثقيلة على نفسه، وهكذا يتسنى انجاز أي عمل في الوقت المناسب وبغير صعوبة تذكر.

النظام التربوي: يعد النظام التربوي ركيزة جد هامة في الفلسفة التي تقوم عليها المدينة المسيحية أحد حسب تصور صاحبها، وهو الذي تتجلى تفاصيله فيما يلي:

أ. **نظام التعليم المتبع**: المدرسة في تصور **أندريا** هي استثمار للوقت والجهد، ولن تجد في أي مكان أخر أفضل منه ولا أكثر ربحا. لذا نجد أنهم بمجرد ما يتم أطفالهم السادسة (06) من عمرهم يسلمهم آباءهم للدولة، ليقيموا في المدارس فيتناولون الطعام هناك وينامون فيها كذلك. وهما في هذا الإطار لا يفرقون بين الجنسين، حيث

يمنحون البنات نفس حقوق الأولاد في الالتحاق بالتعليم، ويتابعن معهن نفس الدروس ولكن ليس في نفس الوقت، فالأولاد يتلقون دروسهم في الصباح والبنات بعد الظهر، ويكرس بقية الوقت للتدريب اليدوي وفنون التدبير المنزلي والعلم، وتتولى المربيات مع العلماء مهمة التعليم.

والغرض من ذلك هو تشكيل عقل الطفل وصقل شخصيته على نحو معين، بالإضافة إلى تنمية ملكاته المختلفة، لذا فإن مفهوم التعليم عندهم يتجاوز حدود حجم المعلومات التي يحصلونها، بل غايته إصابة ثلاثة (03) أهداف كبرى، يتمثل أولها في عبادة الله بروح خالصة مخلصة، وثانيهما السعي نحو الأخلاق الفاضلة العفيفة، وثالثهم تنمية القوى العقلية للناشئة.

ب. الاعتناء بالمدرسة والمدرسين: هذا النظام التعليمي يقتضي أن تكون المدرسة بمواصفات جيدة، فهي تتكون من حجرات واسعة جميلة، لا يحترقون فيها من لهيب الشمس ولا يتجمدون من برد الشتاء، ولا تزعجهم الضوضاء ولا تخيفهم الوحدة. ونفس الشيء بالنسبة للمساكن التي يقيمون فيها، وذلك لتهيئة ظروف صحية لهم، فيحرصون على أن يكون الطعام شهيا وصحيا، وتكون الأرائك والأسرة نظيفة ومريحة والملابس وكل ما يكسو الجسم نظيفا، ويغتسل التلاميذ كثيرا ويستعملون مناشف من الكتان للتجفيف... كما أن معلموهم ليسوا من حثالة المجتمع البشري ولا هم ممن لا يصلحون للوظائف الأخرى، وإنما يختارهم جميع المواطنين، عرف عنهم التمسك بالفضائل الأربعة (04)، وهي: **عزة النفس، التكامل، النشاط، والسخاء**. ويتحلون بالشفقة والمعاملة الحسنة والنزعة المتحررة ويتجنبون التهديد والعنف والصرامة.

النظام الاجتماعي: يمكن تبينه من خلال العناصر الأربعة (04) الآتية:

أ.الزواج: يتسم موقف سكان المدينة المسيحية منه بأنه أكثر تحفظا من اليوتوبيات السابقة، فالزواج بالنسبة لهم لا يتم وفقا لمبدأ تحسين النسل الذي نادى به كامبانيلا، ولكنه يتم استجابة للميول المتبادلة بين الطرفين. فالعوامل التي يأخذونها بعين الاعتبار في الأغلب الأعم هي تجانس الطباع والاستقامة، بالإضافة إلى عامل أخر يندر وجوده في أي مكان أخر وهو تزكية التقوى للعروسين، حيث يسمح للشباب البالغ من العمر أربعة وعشرين (24) سنة أن يتزوج من فتاة لا يقل عمرها عن ثمانية عشر (18) عاما، بشرط موافقة الوالدين ومشاورة الأقارب وتصديق القانون ومباركة الرب.

ب. الأسرة: تتكون العائلة في معظم الأحوال من 04-05 أطفال، وفي حالات أقل من ستة (06). أي الأب والأم وطفلين أو ثلاث على الأكثر.

ت. مكانة المرأة: صورة المرأة في كل اليوتوبيات من **أفلاطون** إلى **كامبانيلا** جاءت في شكل قوية وخارقة. ولكن **أندريا** حرص في عمله هذا على إعطائها دورا أنثويا خالصا، حيث يريد أن تحافظ على مكانتها فلا سيادة لهن إلا على شؤونهن المنزلية، ولا يسمح لهن بالقيام بأعمال الخدم إلا إذا اقتضت ذلك ظروف المرض

أو بعض الحوادث الطارئة، ولا خجل المرأة من أداء واجباتها المنزلية، ولا تتعب من تلبية حاجيات زوجها. ويقمن في بعض الأحيان بالتعليم، وليس لهن في الكنيسة ولا مجلس الشورى صوت مسموع.

ث. التقشف والتماثل الاجتماعي: يقتصر سكان هذه المدينة على الضروري من الأشياء إلى أقصى حد، ويمكن تلمس ذلك في قطع الأثاث التي تتوفر عليها المساكن، وكذا الأطباق الضرورية لمائدة الطعام والأواني الكافية للطبخ، فليس هناك داعي للحصول على أعداد كبيرة من هذه الأشياء طالما يمكن للفرد الحصول من المخزن العمومي على ما يرغب فيه بصورة معقولة. ونفس الأمر أيضا بالنسبة للملابس، فهم يلبسون بذلتين فقط واحدة للعمل والأخرى للإجازات، وهما موحدتان بالنسبة لجميع الفئات. كما أن شكل الملبس ينبغي أن يعكس السن والجنس، وهم يصنعان من الكتان أو الصوف تبعا لطبيعة الفصل (صيف أو شتاء)، واللون واحد وهو الأبيض أو الرمادي الفاتح.

ثالثا. من الطوبيا النظرية إلى الطوبيا التطبيقية: الفكر اليوتوبي لم يتوقف عند حدود التنظير لصالح المجتمع فقط، بل شهد نقلة نوعية في أعمال عدد من المفكرين بعد ذلك، من خلال تحول اهتمامه من فكرة البحث عن المجتمع المثالي إلى فكر ارتبط بالبحث عن المدينة المثالية، وهو ما يظهر في عدد من التجارب العملية التي بادر بها نخبة من رواد المجتمع الأوربي تحديدا أنذاك، والتي اخترنا منها النموذجين الآتيين:

1) **تجربة روبرت أوين**: يعد أوين من أوائل الاصلاحيين الطوباويين الذين حاولوا تحديث حياة الإنسان، وذلك بخلق معمار يوائم بين حاجيات الإنسان ومتطلبات التطور الصناعي، حيث نذر ثروته لتحقيق أرائه في بناء "**مدينة فاضلة**" لحياة مثالية، لكنه بدد ثروته دون نجاح مشاريعه في **انجلترا والولايات المتحدة** في نهاية حياته.

أدرك أوين المأزق الذي أنتجه النمط الصناعي في مستوى طبيعة الحياة العمالية، فسعى بطواعية إلى فتح سبل الحياة الشريفة والصحية للعمال، من خلال إرساء منظومة تعاونية جسدت أغلب مشاريعه، فنظر للمدرسة والتعليم والحياة المشتركة. وبرز أوين كرجل أعمال عصامي ومحب للناس بشخصيته الأبوية، فامتلك مصانع القطن في منطقة **نيولانارك New Lanark** سنة 1800 وأنشأ مشتركا تعاونيا على مزارع **New Harmony** بمنطقة **إنديانا**. وضاعف أوين من أعماله الخيرية لتحسين ظروف عيش العمال مما حسن من مردودية الإنتاج، حيث أقترح إقامة مباني جماعية لفائدة العمال على شاكلة المشتركات المحلية **Les communautés**، أين يحتوي المبنى على مساكن مستقلة وقاعات جماعية للأكل، وقد جعل في بداية تجربته خليطا من الناس (حوالي 2500 متساكنا)، في جالية نموذجية تعمل وتعيش في ظروف مناسبة. وأعتبر أن هذا المشروع كفيل بتحقيق الحياة الكريمة للعامل.

وكانت أفكار أوين نتاج تجربته العصامية، وانفتاحه على نتائج حركة التنوير الفرنسية تحديدا، حيث حمل فكره ازدواجا كبيرا فهو من جهة المناصر للعمال والداعي لتحسين وضعيتهم الاجتماعية، ومن جهة ثانية هو

الممجد للتقنية ولقدرة المجتمع الصناعي على تحقيق حياة أفضل للإنسان، فميز بهذا الشكل بين أهمية الألة وبين النظام الاجتماعي المتسبب في تدهور حياة العمال.

إلا أن نطاق مبادرته توقف عند هذا الحد، حيث تحطمت كل تجاربه بعد أن أخفق في محاولته لتكراراها في **غلاسكو** و**إنديانا** بالولايات المتحدة الأمريكية، لينتهي العمل بها في سنة 1846، وذلك بسبب تباين ذهنيات المتساكنين والافتقار إلى روح المسؤولية، إلى جانب للصراع العنيف الذي نشب بين طبقة البروليتاريا الاشتراكية وأرباب العمل أصحاب المصانع.

2) **جيمس سلك بكنجهام**: يعد أول الداعين لنمط حضري ظهر في منتصف القرن التاسع عشر (19) وذلك في كتابه "**الشرور القومية والعلاجات الطبقية**" والذي نشر عام 1849. حيث أقترح في هذا الكتاب تأسيس جمعية لأغراض البناء أطلق عليها مسمى: "**جمعية المدينة النموذجية**". فالمدينة في رأيه ينبغي أن تجمع كل مميزات الجمال والأمن والصحة العامة والراحة، وأن يكون بها عدد قليل من السكان يسودهم الانسجام التام. كما رأى ضرورة ان يكون هناك تناسب بين المناطق الزراعية والمناطق الصناعية، وكذلك تناسق بين الملاك وأصحاب العمل والعمال. إذ من شأن ذلك الترابط يمكن أن يأتي الأفراد بالقوانين والأحكام التي يديرون بها الشكل الجديد للمدينة ويهيئون بها ضرورات الحياة والترفيه فيها. ولم يكتفي جيمس بمجرد التنظير لأفكاره وأطروحته فقط، بل جسدها في نموذج أطلق عليه اسم مدينة فيكتوريا النموذجية، معلنا أن مدينته يجب أن تسكنها أحسن الجماعات المنظمة، حيث السكان الممتازين القادرين على سحق واقتلاع الأمراض الخبيثة، الرذيلة والجريمة، الفقر والبؤس، العداء، مشاعر الحقد والكراهية بين الأفراد. فمثل هذه الجماعات وبسماتها تلك يمكنها أن تهيئ للسعادة كي تتحقق عن طريق الخير والإنسانية والمحبة.

وفي هذه المدينة أيضا الحرية الدينية قائمة أيضا بلا حدود، حيث يخصص يوم الأحد من كل أسبوع للعبادة، ولا تعمل أية امرأة في أعمال الرجال، أما الأطفال فقد وجههم للمدارس للتدريب على التطبيب، بعد أن جعل التعليم في مدينته مجانيا وإلزاميا حتى سن الخامسة عشر، ولا يسمح لهم بالعمل في أعمال لا تتناسب مع أعمارهم ومقدراتهم العضلية. وخصص لكل دار مرحاض، وحمامات عامة موزعة في أماكن مناسبة في كل مربع من المدينة. كما لم يغفل بكنجهام المطاعم اللوميونية (الاشتراكية).

ويتضح من هذه الخطوط الرئيسية التي أقام على ضوئها **بكنجهام** تخطيطه لمدينته، أنه قد ذهب في طرحه بعيدا عن **روبرت أوين**، **وذلك** بتصوره لنظام مكتمل وليس لمجتمع المصنع فقط كما فعل سلفه، وهو ما مكن التطور من أن يصيب مناطق عديدة في **إنجلترا** وذلك في أقل من قرن، ونخص بالذكر منها: **اسكتلندا**، **ايرلندا** **وويلز**.

3) **شارل فورييه*** (**1772-1837**): كما بادر خلال نفس الفترة تقريبا الفرنسي **شارل فورييه Charles Fourier** بمحاولة إحلال نظام اجتماعي قائم على المنزع الأخلاقي، حيث كان فكر **فورييه** أميل إلى تمجيد العصر الزراعي مقابل ازدراء للعصر الصناعي، لاعتقاده بأن العصر ما قبل الصناعي يحقق إنسانية الإنسان بشكل أفضل من الذي تلاه، لذلك أقام مشتركات زراعية صغيرة **Les petites communauté domestiques** أطلق عليها اسم **الكتائبيات** Les phalanstéres. حيث تتأسس هذه المشتركات من ميثاق عاطفي يجمع بين المتساكنين الذين يبلغ عددهم حوالي 1600 شخص، من المعارضين لنظام المكننة والعاملين في مزرعة تمسح قرابة ال 400 هكتار، حيث تقع غراسة الثمار والزهور.

ومثلت هذه التشاركيات بالنسبة **لفورييه** مظهرا من مظاهر الطبيعة الإنسانية الخيرة المستمدة من الله، حيث تنعم مجموعة سكانية بالحياة الشريفة في مبان ضخمة تتوفر لها فيها الخدمات العامة وتحتوي على محاضن للأطفال. ولشدة ما أكد **فورييه** على دور التماسك العائلي في بناء توازن النظام الاجتماعي، أولى في كتابه "**التشارك الزراعي العائلي**" **L' association domestique agricole** أهمية كبرى للأسرة التي تدعم التعاونيات. وقد انتشرت فيما بعد تجارب عديدة لهذه الكتائبيات في **فرنسا** إلا أنها لم تكلل في نهاية المطاف بالنجاح المنتظر منها.

4) **تجارب أخرى**: وعلى نهج فورييه قام **جان باتيست غودان** (1888-1917) بإنشاء ما سماه "**القصر الاجتماعي**" والذي هو عبارة عن حي عمالي يجمع حوالي 900 شخص ويحتوي على مرافق مشتركة ويتمتع الأطفال بالحضانة والدراسة، ويشرف على الحي هيئة عمالية تتولى إدارته وتحديد حاجيات المتساكنين، وتتولى عمليات الشراء وتوزيع المؤونة بأثمان مخفضة. كما شدت حالة الفقراء والمتعطلين الذين يعيشون بلا مأوى والتي وقف عليها **بوت** في دراسته عن حياة العمال في لندن، فأقترح ضرورة تكوين مستعمرات حدد أنماطا ثلاثة لها، وهي المدينة المستعمرة، والحقل المستعمر، والمستعمرات عبر البحار، حيث تتكون كل مستعمرة من قرية شبه حضرية يتراوح عدد سكانها بين 1000-2000 نسمة. كما دعا لإنشاء ما أسماه بجيش الخلاص لنشر الدين ومساعدة الفقراء.

المراجع المستخدمة في المحاضرة:

1) محمد قنفودي: مركزية المعرفة في مدينة الشمس: قراءة في يوتوبيا الفيلسوف الايطالي توماسو كامبنيلا، في: **مجلة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث**، يوليو 2016.

2)

* من مواليد مدينة Besancon، وحاصل على دبلوم في العلوم السياسية سنة 1799،